﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

[الأنعام: 153]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الوصايا القرآنيّة من جملة الصّراط المستقيم اللازم اتّباعه

بعد أن ذكر في الآيتين السَّابقتين جملة من الوصايا البليغة الَّتي تُعَدُّ جوهر الإيمان، ومحور الرِّسالات السَّماويَّة، أتبعها بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾؛ تصريحًا أنَّ تلك الوصايا هي من صميم صراط الله المستقيم الذي أمر الله تعالى المسلمين بسلوكه والدّوام عليه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صِرَٰطِي﴾: جذر الكلمة هو (سرط) و(صرط)، والصِّرَاطُ، السَّبيل الواضح، والطَّريق القاصد[1]، ويكتب بالسّين والصّاد، وإنَّما قيل للطَّريق الواضح: سراط؛ لأنَّه يسترط المارَّة لكثرة سلوكهم[2]، قالَ تَعَالَى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: 6][3]، ومعناه: ثبِّتنا على المنهاج الواضح المستقيم الذي لا اعوجاج فيه. قال جرير:

أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ *** إِذَا اعْوَجَّ المَوَارِدُ مُسْتَقِيمِ[4]

2) ﴿ٱلسُّبُلَ﴾: جمع سبيل، وهو الطَّريق، وما وضح منه، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّث، وسبيل الله طريق الهدى الَّذي دعا إليه، وفي التَّنزيل: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (سرط).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرط).
(3) الزّبيدي، تاج العروس، وابن منظور، لسان العرب: (صرط).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سرط).

[الأعراف: 146]، ومن استعمال لفظ (السبيل) مُؤَنَّثًا قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: 108]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 195]، أي: في الجهاد، وكلّ ما أمر الله به من الخير، فهو من سبيل الله، أي: من الطُّرق الموصّلة إلى الله تعالى، واستعمل السَّبيل في الجهاد أكثر؛ لأنَّه السَّبيل الَّذي يقاتل فيه على عقد الدِّين، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ [التَّوبة: 60]، ابن السَّبيل: ابن الطَّريق، وتأويله الَّذي قطع عليه الطَّريق[1].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الـدَّعـوةُ إلى صـراطِ اللـهِ المستقيمِ، وتجنُّب سُبُل الضَّلال المهلكة

بعد تعداد الوصايا العظيمة الَّتي كانت فحوى الرِّسالات السَّماوية كلِّها، بيَّن الله سبحانه في هذه الآية أنَّ التزام هذه الوصايا، هو السَّبيل إلى النَّجاة الَّتي مَنَّ الله بها على البشر، فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾، أي: قل: إنَّ هذا القرآن الَّذي أدعوكم إليه، وأدعوكم به إلى ما يُحييكم، هو صراطي ومنهاجي الَّذي أسلكه، المُوَصّل إلى مرضاة الله ونيل سعادة الدُّنيا والآخرة، وهو الدِّين القويمُ والشَّرع الحنيفُ، وهو الَّذي وصَّاكم الله به على لسان أنبيائه، وفي كتبه السَّابقة أن إذا جاء فاتَّبعوه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ الأخرى الَّتي تخالفه، فقال: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾، فأنواع الضَّلال وطرقه كثيرة، أمَّا الهداية؛ فهي نوع واحدٌ وسبيل واحدة[2]، وحثَّ على التَّمسُّك بها، وتَجَنُّبِ سائر السُّبل، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فتكون التَّقوى باتِّباع ما جاء في القرآن الكريم.

(1) ابن سيده، المُحكم: (سبل).
(2) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/393 - 394.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطفِ في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾:

تـمـاثـلُ المعطوفاتِ في أغراضِ الخطابِ وترتيبِهِ

في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ الواو عاطفة على جملة: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: 151]، لكون المعنى: (تعالَوا أتل عليكم التَّوحيدَ ونفيَ الإشراك، وأتلُ عليكم أنَّ هذا صراطي مستقيمًا)، وهذا الإعراب في حالة جعل (أنْ) ناصبة للفعل في ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟﴾، فيكون العطف دالًّا على أنَّ تلك الأوامر والنَّواهي السَّابقة هي وصايا تُحقِّق العدل المجتمعيَّ والأسريَّ، وذلك لأنَّ صراطي مُسْتَقيمٌ.

والمعنى الثاني أن تكون جملة ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ علَّة للاتِّباع بمعنى: (ولأنَّ هذا صراطي مستقيمًا فاتَّبعوه)[1]، ووفق هذا المعنى؛ فإنَّ العطف أفاد تفسير استقامة الصِّراط؛ كونه قائمًا على كلِّ شرع مستقيم يحقق مصلحة الأفراد والمُجتمعات، ويضمن الفرد الصَّالح والأسرة المُتماسكة.

التَّوجيهاتُ البلاغيَّةُ للقراءات في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾:

تتشعَّبُ المعاني مع التَّوجيهاتِ البلاغيَّةِ للقراءاتِ المختلفة

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾، قرأ حمزة والكسائي (إنَّ) مَكْسُورَة الْألف مُشَدَّدَة النُّون[2]، على معنى الابتداء، أو على أنَّ التِّلاوة في معنى القول أو على الاستئناف، والمعنى: اتَّبعوا صراطي، إنَّه مستقيم، وقَرَأَ ابْن كثير ونافع وعاصِم وأَبو عَمْرو ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ مفْتُوحَة الْألف مُشَدَّدَة النُّون بالنصب على معنى البناء[3]، وَقَرَأَ ابْنُ عَامر (وَأَنْ هذا) مَفْتُوحَة الْألف مَوْقُوفَة النُّون[4]، فمن قرأ بالفتح والتَّخفيف؛ فبإعماله في ضمير الشَّأن، والتَّقدير: (تعالوا أتل ما حرم، وأتل أنَّه هذا صراطي)، وكذا فيمن قرأ بالتَّشديد وبالفتح

(1) بهجت صالح، الإعراب المفصّل: 3/360 - 361.
(2) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 273.
(3) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 273.
(4) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 273.

إلَّا أنَّ ضمير الشَّأن لا يُقدَّر، أو أن تكون خفضًا متعلِّقًا بما قبله، أي: ذلكم وصَّاكم به، وبأن هذا، أو بما بعده، والتَّقدير: وبأنَّ هذا صراطي مستقيمًا ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾[1].

سرُّ التَّوكيدِ في: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾:

الإقناعُ بقبولِ الوصايا والعملِ بها؛ يحتاج إلى تأكيداتٍ وأدلَّة

قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾، فـ(أنَّ): حرف نصب وتوكيد، والمعنى: وهذا الَّذي وصَّاكم به ربُّكم - أيُّها النَّاس - في هاتين الآيتين، من قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، وأمركم بالوفاء به، هو صراط اللَّه المستقيم، أي: طريقه ودينه الَّذي ارتضاه لعباده[2]، و(أنَّ) لا يتم الكلام بها إلَّا مع ضميم معها، فقال: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾؛ وهي في ذلك بخلاف (إنَّ) المكسورة، وهُما يُفيدان معنى التَّوكيد، وفائدة هذا التَّوكيد: مخاطبة النُّفوس المتردِّدة في قبول هذه الوصايا الَّتي هي جملة من الأوامر والنَّواهي، والتأكيد بأنَّها هي الصِّراط المستقيم لا سواها، فمن سلك غير هذه السَّبيل؛ فقد سلك السَّبيل المنحرف عن الحقِّ وعن الهداية.

دلالةُ استعمالِ اسمِ الإشارة للقريب ﴿هَٰذَا﴾:

صـــراطُ الـلـه المستقيم حاضرٌ لا يـغـيـبُ عـن الأذهان

في هذه الجملة إخبار عن اسم الإشارة بالاسم ﴿صِرَٰطِي﴾، فهي في تقدير جواب عن سؤال: ما هذا؟ فيكون الجواب: هذا صراطي مستقيمًا، فالإشارة فيه إلى ما ذكر في السُّورة، فإنَّها بأسرها في إثبات التَّوحيد والنُّبوَّة وبيان الشَّريعة[3]، وقال الطَّبريُّ: الإشارة هي إلى هذه الوصايا الَّتي تقدَّمت من قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ﴾ [الأنعام: 151][4]، وأنَّ هذا، أي: هذا الَّذي وصَّيْتُكم به في هاتين الآيتين،

(1) النَّحّاس، إعراب القرآن: 2/40.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/228.
(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/189.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/363.

صراطي، طريقي وديني، مستقيمًا، مستويًا قويمًا، فاتَّبعوه[1]، أو أن تكون الإشارة هي إلى الشَّرع الَّذي جاء به محمَّد ﷺ بجملته، فمعنى الإشارة هي الجواب على السؤال: ما هذا الذي ورد من الوصايا؟ فيكون الجواب مجازًا: هذا الإسلام، فذكر الجُزء وأراد الكُلَّ، أي: وأنَّ الإسلام صراطي، فالإشارة بـ﴿هَٰذَا﴾ يُنبئ عن حاضر في أذهان المخاطبين، فما تقدَّم من الأوامر والنَّواهي تتشكَّل منها قواعد وأنظمة حاضرة في الأذهان، يُفهم منها المنهج القويم الذي هو جزءٌ من تعاليم الإسلام وشرعه، فيعرفه النَّاس، ويتبنَّوه، فَنُزِّلَ منزلة المشاهد، فاستعمل فيه اسم الإشارة الموضوع لتعيين ذات بطريق المشاهدة مع الإشارة[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ (الصراط):

الصِّراطُ المستقيمُ هو الإسلامُ بتشريعاته وسامي قيمه

الصِّراطُ: الطَّريق الجادَّة الواسعة، والمراد هنا: جميع تلك التَّشريعات الَّتي هي مضمون الإسلام، أو أريد الإسلام نفسه، كما دلَّ عليه قوله في آخر السُّورة: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: 161]؛ لأنَّ المقصود منها تحصيل الصَّلاح في الدُّنيا والآخرة، فشبَّهت بالطَّريق الموصل السَّائر فيه إلى غرضه ومقصده، ولمَّا شبَّه الإسلام بالصِّراط، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وجُعل كالشَّيء المشاهد، صار كالطَّريق الواضحة البيِّنة، فادُّعي أنَّه مستقيم، أي: لا اعوجاج فيه؛ لأنَّ الطَّريق المستقيم أيسر سلوكًا على السَّائر، وأسرع وصولًا به[3]، ويمكن إجراء الاستعارة بطريق آخر فيقال: قد صوَّر المشهدُ تشخيصًا للصِّراط، وكأنَّه إنسان يرشد إلى الطَّريق، وعلى المُخاطبين أن يتَّبعوه؛ لأنَّه سيضمن لهم السَّير في الطَّريق المستقيم المؤدِّي إلى

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/171.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/172.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/172.

رضاء الله تعالى، فحذف الإنسان؛ وهو المُشبَّه به، وأثبت المُشبَّه، فهو استعارة مكنيَّة تشخيصيَّة.

نكتةُ إضافةِ الصِّراط إلى الياء:

سلوكُ صراطِ الله تكريمٌ ومنَّةٌ على المؤمن من مولاه

في قوله: ﴿صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾؛ أضيف لفظ (الصِّراط) إلى الرَّب سبحانه من حيث الوضع، وإليه ﷺ من حيث السُّلوك والدَّعوة، أي: هذا الصِّراط - الَّذي أسلكه، وأدعو إليه - مستقيمٌ لا اعوجاج فيه[1]، والياء المضاف إليها (صراط) تعود إلى الله، وفي ذلك تكريم للمخاطبين الَّذين سيتَّبعون هذا الصِّراط، كونه صراط الله سبحانه الخالق لهذا الكون، المُقدّر لكلِّ شيء، فهو وحده القادر على أن يختار صراطًا مستقيمًا، يصلح لحياة البشر، فيرسل الرُّسل لتبيين هذا الصِّراط، وهذا ما يدلُّ عليه قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشُّورى: 52، 53]، على إحدى طريقتين في حكاية القول، إذا كان في المقول ضمير القائل أو ضمير الآمر بالقول، كما تقدَّم عند قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: 117][2].

نكتةُ وصفِ الصِّراطِ بالاستقامةِ مع كونه لا يكون إلا كذلك:

استحضارُ استقامةِ الصِّراطِ في الذِّهن، يجعله كالأمر المحسوس

قوله: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾، حال من اسم الإشارة، وحسُن وقُوعُه حالًا؛ لأنَّ الإشارة بنيت على ادِّعاء أنَّه مشاهد، فيقتضي أنَّه مستحضر في الذِّهن بمجمل كلِّيَّاته وما جرَّبُوه منه، وعرفوه، وأنَّ ذلك يريهم أنَّه في حال الاستقامة، كأنَّه أمر محسوس[3]، فأفاد معنى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي﴾ - كما تعرفونه، وتُعايشونه - ﴿مُسْتَقِيمًا﴾، فاقتضى أن تتَّبعوه، ومثال ذلك أيضًا قوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: 72]، فقال:

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/299.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/172.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/173.

﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾؛ لأنَّهم عرفوا استقامته، فلا حُجَّة بعد ذلك في ترك اتِّباعه، فجاء الأمر موجبًا عليهم الاتِّباع.

غرضُ الالتفاتِ من الخطاب إلى الغيبة:

صـراطُ اللهِ هو الصِّراط الضَّامن لـلـسَّـالـكـين والمـضـمـون باليقين

وقد عدل عن الغيبة الَّتي جرى عليها الكلام السَّابق، فالتفت من قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 151]، إلى التكلُّم في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾؛ للإشعار منه سبحانه بعصمة هذا الصِّراط من الزَّلل؛ لكونه صراط الله الضَّامن لمُتَّبعيه وصولًا إلى النَّجاح، وفائدة هذا الالتفات تعظيمٌ لشأن هذا الصِّراط، وتأصيلُ صفة الاستقامة فيه، فاستقامته آتية من انتسابه إلى الله تعالى، فهو صراط مستقيم مع جميع الشَّرائع الَّتي جاء بها الرُّسل، ورسالة موسى أنموذج عظيم سابق لرسالة محمَّد ﷺ.

معنى التَّفريع في: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾:

اتِّباعُ صراطِ الله هـو الـغـايـةُ في كونه صراطًا لله

في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾، الفاء تفيد التَّفريع، والمرادُ إمَّا تفريعُ الاتِّباع على كون الصِّراط مستقيمًا، أي أنّ استقامة الصراط تدعو وتقتضي اتِّباعه، وإمَّا أن يكون الأمرُ بالاتباع متفرِّعًا عن كونه الصراط المضاف إلى النَّبيّ ﷺ، ولا خلاف بين هذين المذهبين، فصراط الله هو في ذاته مستقيم، وهو في الوقت نفسه صراط نبيِّنا ﷺ، والمسلم مطلوب منه أن يتَّبعه للعلَّتين كلتيهما.

دلالةُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾:

الأمـرُ بـاتِّـبـاع سبيلِ الله، هو فـضـلٌ ورحـمـةٌ منه سبحانه

قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ تضمَّن المعنى الحقيقيَّ لصيغة الأمر، للطَّلب من الأعلى إلى الأدنى، وفائدته: توجيه أذهان المُخاطبين إلى رؤية واضحة، حول السَّبيل الصَّحيحة الَّتي يسلكها الإنسان في حياته، وصولًا إلى إرضاء الله تعالى، في علاقاته ومعاملاته وحياته كلِّها.

بلاغة جملة ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾:

بيانُ استقامةِ الصِّراطِ قبلَ الأمرِ باتِّباعه: منهجٌ علميٌّ رصينٌ

لو قيل: (فَاتّبِعُوا صِرَاطِيَ مستقيمًا)؛ كان الأمر بالاتِّباع ضعيفًا ممّا جاء عليه نظم الآية، فقد يخرج إلى معنى التَّوجيه المباشر؛ لِفَقدِ التَّوكيد والانفصال عمَّا سبقه من الأوامر والنَّواهي المتضمِّنة للمنظومة: الأخلاقيَّة، والإيمانيَّة، والإنسانيَّة العظيمة الَّتي تُمثِّل محور الصِّراط المستقيم، فعدل عن ذلك إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾، كما أنَّ العبارة المُفترضة (اتّبِعُوا صِرَاطِيَ مُسْتقيمًا)، أفقدت الجملة التَّوكيد بـ(أنَّ) واسم الإشارة اللَّذين منحاها القوَّة؛ إذ لا يكون للسِّياق حاجة في ورودهما على خلاف نظم الآية الكريمة.

دلالةُ الجملةِ الفعليَّة في: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾:

الاتِّباعُ يقتضي الحرصَ والمُتابعةَ وتجديدَ النِّيَّةِ والعهد

أفادتِ الجملةُ الفعليَّة دلالة التجدُّد مع الزَّمن، فالاتِّباع يقتضي تجديد العهد به، وتخيُّر الأساليب المؤدِّية إلى أمثل اتِّباعٍ وأحسنه، وتجدُّدها مع مقتضيات الحياة، وتجدُّد أساليب عيش النَّاس، وهي على خلاف الاسميَّة الَّتي تفيد الاستقرار والثَّبات.

دلالةُ العدولِ منَ الأمرِ في ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ إلى النَّهي في ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾:

تنويعُ أسلوبِ الخطابِ مُحفِّزٌ لاستجابةِ المُخاطَبين

قولُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾، معناه: لا تسلكوا الطُّرق المختلفة في الدِّين، وما فيها من سائر البدع والضَّلالات، وقد قابل هنا بينها وبين الصِّراط المستقيم[1]، فدلَّ ذلك الأسلوب البلاغيُّ على صفة محذوفة فيها، فهي السُّبل المتفرِّقة المُعوَجّة غير المستقيمة، وهي طرق تتشعَّب من السَّبيل الجادَّة، فلذلك سبَّبَ عن النَّهي، قوله: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ إذ عدل من الأمر ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ إلى النَّهي ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ ليُبيِّن أنَّ هذه السُّبُل الَّتي هي غير سبيل الله، تؤدِّي بسالكها إلى التَّفرُّق عن سبيل الله المستقيم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/76.

غرضُ العدولِ منَ الصِّراطِ إلى السُّبُلِ بالجمعِ:

الصِّـــراطُ المستقيمُ واحدٌ واضـــحٌ، ومـا دونه سُبُلٌ ضالَّةٌ غيرُ مُوصّلة

السَّبيل يرادف الصِّراط، فقد ورد السَّبيل - أيضًا- للدَّلالة على سبيل اللّه، وسبيل رسوله، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: 108]، ولأنَّ المُقابلة والإخبار عنها بالتَّفرق دلَّ على أنَّ المراد سبُلٌ خاصَّةٌ موصوفةٌ بغير الاستقامة[1]؛ فَقَابَلَ بين الصِّراط المستقيم المُتَّصف بالسَّعة والاستقامة والواحديَّة، وبين السُّبل العديدة الضَّيِّقة المُنحرفة عن الاستقامة، فأدَّت هذه المُقابلة تمثيلًا تصويريًّا لها بين حالين: حال من يسلك الصِّراط المستقيم، فَيَصِلُ إلى مراد اللّه ومراد رسوله، قُبالة حال من يسلك واحدًا من السُّبل المُتفرِّقة المُتشعِّبة المُنحرفة عن الصِّراط المستقيم، فلا يصل إلى ما أمره اللّه من الخير، ولا يُحقِّق لنفسه الفوز بالهدف والغاية، فأراد بالسُّبُل الَّتي تعدل عن الصِّراط المستقيم يمينًا وشمالًا، والعرب تقول: الزم الطَّريق، ودَعِ البُنيّات[2]، وجَمَعَ سبيلَ البَاطِلِ، وأفرد سَبِيلَ الحقِّ؛ لأنَّ طريق الحقِّ واحدٌ، وأمَّا البَاطِلُ؛ فطُرقُهُ متشَعِّبَة مُتَعَدِّدَة[3].

بلاغة التَّمثيل:

الأمـــرُ باتِّـبـاعِ سـبـيـلِ الـلـه، والنَّهيُ عن اتِّباع مـا ســواه: هو مشروعُ الحياة كلِّها

في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ مشهدٌ تصويريٌّ لمعنى صراط اللّه المستقيم، وصورة نابضة بالحياة والحركة لطُرق أهل الضلال المُعوَجّة المُلْتوِيَة حيث مثّل سبحانه لهذه المعاني بتقرير أنّ الإسلام صراطٌ واضحٌ جليٌّ، وأنّ ما عليه أهل الضلال من انحراف في العقيدة وفسوق في السُّلوك وارتكاب للآثام والمحرّمات هو بمثابة اتّباعهم لسُبُل مختلفة وطرقٍ مُلتويّة لا تُوصّلُهم إلى الغرض المنشود وهو الدّينونةُ للّه تعالى وتوحيده بالعبادة وإخلاص الطاعة لوجهه الكريم. وفيما جاء عليه النّظم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/173.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن: 163.
(3) الزّركشّي، البرهان: 4/12.

الجليل تمثيلٌ ومشهدٌ مرئيّ يراه كلُّ ذي عقل رشيد وكلّ من ألقى السّمع وهو شهيد. وهو عينُ التّمثيل الذي ذهب إليه رسول الله صلّي الله عليه وسلّم في الحديث الذي رواه ابن مسعود ﷺ. فعن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ، «أنَّه خطَّ لنا خطًّا، ثمَّ قال: هَذَا سَبِيلُ اللهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ - قَالَ يَزِيدُ: مُتَفَرِّقَةٌ - عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾[1].

دلالة النَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾:

الانتهاءُ عن اتِّباع غير سبيل الله؛ هو الضَّامنُ لعدمِ انحراف النُّفوس

تضمَّن النَّهي هنا المعنى الحقيقيَّ، وهو طلب الكفِّ عن فعل شيء على وجه الاستعلاء، وفائدته مُكمِّلة لفائدة الأمر قبله؛ إذ نهانا الله تعالى عن اتِّباع سبلٍ أخرى غير سبيله سبحانه؛ لأنَّها ستؤدِّي بالنَّتيجة إلى إبعادهم عن سبيل الله سبحانه، وأنَّها بالنَّتيجة - أيضًا- ستؤدِّي إلى اضطراب علاقاتهم ومعاملاتهم وحياتهم كلِّها؛ لأنَّ من ترك الحقَّ، فقد لجأ إلى الباطل من الأفعال والأقوال.

بلاغةُ القراءاتِ في الفعل: ﴿فَتَفَرَّقَ﴾:

السُّبُلُ المتفرِّقةُ هي غواياتُ الشَّياطين يُزيِّنونها لمتَّبعيهم

قُرِئَ الفعلُ (تَفَرَّق) بإفراد التَّاء ﴿فَتَفَرَّقَ﴾، وبتكرارها (فَتَتَفَرَّق)[2]، وقرأ (البزِّيُّ) وصلًا بخلف عنه بتشديد التَّاء فيما أصله تاءان، وحذفت واحدة من الخطِّ ﴿فَتَفَرَّقَ﴾[3]، وبحسب قاعدة: زيادة المبنى تُنبئ عن زيادة المعنى؛ فإنَّ قراءة التَّكرار للتَّاء، فيها معنى أقوى، للدَّلالة على دور تلك السُّبل في تفريق سالكيها، وصرفهم بعيدًا عن سبيل الله، وصراطه المستقيم، فيكون المعنى

(1) أحمد، مسند الإمام أحمد، مسند عبد الله بن مسعود: 7/207 - 208، الحديث رقم: (4142).
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/232.
(3) محيسن، القراءات وأثرها في علوم العربية: 1/127.

المفهوم من ذلك أنَّ لتلك السُّبل الدَّور الأكبر في حصول ذلك التَّفريق، أمَّا على التَّخفيف؛ فإنَّ المعنى يفيد توزيع دور التَّفريق بين السُّبُل وسالكيها، فلولا أنَّ سالكي هذه السُّبل لديهم الاستعداد النَّفسي للولوج فيها؛ لَمَا ولجوها، واتَّبعوها.

نوعُ الباءِ ومعناها في قوله: ﴿بِكُمْ﴾:

من سلكَ سبيلَ الأهواءِ؛ ضاعَ في دروب المعاصي والمنكرات

الباءُ في قوله: ﴿بِكُمْ﴾ للمصاحبة، أي: تتفرَّق السُّبل مصاحبة لكم، أي: تتفرَّقون مع تفرُّقها، وهذه المصاحبة المجازيَّة تجعل الباء بمنزلة همزة التَّعدية، كما ذكر ذلك النُّحاة، في نحو: ذَهَبْتُ بزيد، أنَّه بمعنى: أذهبته، فيكون المعنى: فتُفَرِّقَكُم عن سبيله، أي: لا تلاقون سبيلَه[1]، فالسَّالك لواحدة من هذه السُّبُل، إنَّما سيزداد بُعدًا كُلَّما أوغل في مسلكه وسيره، وطال به الزَّمن، زاد بُعْدُهُ عن سبيل الله وطريقه المُوَصِّلة إلى الهداية، فالبُعد مصاحب لسالك هذه السُّبُل مع كلِّ خطوة يزداد بُعدًا، وذكر أبو البقاء: أنَّ الباء هنا للتَّعْدِيَةِ، أي: فيفرِّقكم ذلك الاتِّباعُ[2]، و﴿بِكُمْ﴾: في موضع المفعول، أي: فتفرّقكم، ويجوز أن يكون حالًا، أي: (فتتفرَّق وأنتم معها)[3].

نكتةُ الإضافةِ إلى الضَّميرِ في ﴿سَبِيلِهِۦ﴾:

على قدرِ الأفعالِ والأقوالِ والنِّيَّاتِ، يكون البعدُ بتفرُّق السُّبل

قال: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، ولم يقل: (عنْ سبيل الله) أو (عن سبيلي)؛ إشارة إلى البعد الَّذي أصابهم، حال سلوكهم تلك السُّبل، فأبعدتهم عن الله، ويُرشِّحُ هذا المعنى، ويُقوِّيه: ضمير الغائب في ﴿سَبِيلِهِۦ﴾، على خلاف ورود ضمير المتكلِّم، بقوله: ﴿صِرَٰطِى﴾ بضمير المُتكلِّم الَّذي يدلُّ على أنَّ سالكي هذا الصِّراط ومُتَّبعيه قريبون من الله تعالى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/173 - 174.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/189.
(3) أبو البقاء العكبري، التّبيان في إعراب القرآن: 1/549.

الالتفاتُ من التّكلّم إلى الغيبة:

مَنِ انصرفَ عنِ اللهِ، وانحرفَ؛ أعرضَ اللهُ عنه، وانصرفَ

الضَّمير المضاف إليه في: ﴿سَبِيلِهِۦ﴾، يعود إلى الله تعالى، بقرينة المقام، أي: عن سبيل الله، ولمَّا كان ضمير المتكلِّم في قوله: ﴿صِرَٰطِى﴾ عائدًا إلى الله أيضًا؛ فإنَّ ضمير ﴿سَبِيلِهِۦ﴾ التفات عن (سبيلي)، وفائدة هذا الالتفات: الانصراف عن أولئك الَّذين انصرفوا عن سبيل الله، وتفرّقوا بمسالكهم المُتباعدة عنه سبحانه وعن شرعه.

دلالة استعمال اسمِ الإشارةِ للبعيدِ في: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾:

وصايا الله في الكتاب: هي استقصاءٌ للخير كُلِّه

الوصية الأخيرة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ هي الجامعة لكلِّ ما جاءت به دعوة الحقِّ، حيث دعت إلى اتِّباع صراط الله، والانتهاء عن اتِّباع طرق الشَّيطان، فطريق الله سبيل النَّجاح في الدُّنيا والآخرة، وفي قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ استعمل اسم الإشارة للبعيد، لنُكتة استقصاء الوصايا السَّابقة كلِّها، وليعطي ملمحًا للمتلقِّي: أنَّها وصايا قديمة جاءت بها رسالات الأنبياء والرُّسل من قبل، فعدل عن هذا إلى ذلك، ودلالة ضمير الجمع فيه لدلالة شمول الوصايا السَّابقة كلِّها.

دلالة التَّعبيرِ بالماضي في ﴿وَصَّىٰكُم﴾:

الوصايا الَّتي جاءَ بها الكتاب ثوابت راسخةٌ لا تتغيَّر

في قوله: ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾، جاء التَّعبير بالماضي، لبيان أنَّ هذه الوصايا أصبحت كالثَّوابت الَّتي لا تغيير فيها، ولا نسخ، وهي كالرَّواسخ في الشَّريعة الإسلاميَّة وغيرها من شرائع الرُّسُل، وذلك على خلاف المضارع الَّذي يفيد التَّجدُّد مع الزَّمان، وعن ابن عبَّاس ﷺ: هذه الآيات محكمات لم ينسخهنَّ شيءٌ من جميع الكتب، وقيل: إنَّهنَّ أمُّ الكتاب، وعن كعب الأحبار: والَّذي نفس كعبٍ بيده، إنَّ هذه الآيات لأوَّل شيء في التَّوراة[1].

(1) الطّيبيّ، حاشية الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/295.

نكتةُ حذفِ فاعلِ ﴿وَصَّىٰكُم﴾:

حذفُ الفاعل وهو الاسم الجليل لوضوحه في الأذهان

الفاعلُ للفعل: ﴿وَصَّىٰكُم﴾، هو الاسم الجليل، أي: (وصَّاكم الله به)، وفائدة حذف الفاعل في مثل هذا المقام هو العلمُ به، وعدمُ انصراف الذّهن إلى غيره، وذلك أيضا ضربٌ من الإيجاز لأنّ البلاغة قائمةٌ على حذف كلّ ما يدلُّ عليه السّياق ولا زيادة في المعنى في التّصريح به.

الطيُّ والنَّشرُ في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

تكرير الوصايا ترسيخٌ للمضامين في نفوس المخاطَبينَ

قولهُ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تكرير لِمثْلَيه السَّابقَيْنِ، فالإشارة بـ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلى الصِّراط، والوصاية به معناها: الوصاية بما يحتوي عليه[1]، وهذا من قبيل الطَّيِّ والنَّشر المقلوب، وفائدته: ترسيخ مضامين تلك الوصايا، وتوكيد الوصيَّة نفسها.

العدول عن فعل الأمر إلى فعل التّوصية:

وصايا القرآن الكريم: أوامرُ ونواهٍ، وخيرٌ وصلاحٌ

قوله ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ من التّذييل المفيد النّافع الذي يُرشِّح فائدةَ العدولِ من الأمر إلى الوصيَّة؛ إذ إنَّه لمَّا أمر ونهى؛ فقد اقتضى المقامُ مزيدَ توكيدٍ للالتزام بالأوامر السَّابقة، والانتهاء عمَّا نهى عنه، فذكر الوصيَّة ليشمل الأوامر والنَّواهي، وهو الصِّراط المُستقيم، ولذلك ختم بقوله: ﴿بِهِۦ﴾، أي: بالصِّراط.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(لعلَّ) دون غيرِها في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

تلميحاتُ القرآنِ بحدوث الخيرِ والبُشرى للمؤمنين

أداة (لعلَّ) موضوعة لإنشاء توقُّع أمر، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ جعل الرَّجاء لتوقُّع حصول التَّقوى؛ لأنَّ هذه السَّبيل تحتوي على ترك المحرَّمات، وتزيد بما تحتوي عليه من فعل الصَّالحات، فإذا اتَّبعها السَّالك؛ فقد صار مرشَّحًا للتَّقوى وأفعال التَّقوى، واستعمال (لعلّ) يُومئُ إلى توقّع تقوى المخاطبين وزحزحتهم عمّا هم فيها، ودَعْوتهم للالتزام بالتّقوى وشروطها وآدابها وكلّ ما يُوَصّلُ إليها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/174.

نكتةُ المضارعيّة في الفعل ﴿تَتَّقُونَ﴾:

اتِّباعُ صراطِ الله تأكيدٌ للتَّقوى، وتجديدٌ للهمَّة في الاتِّباع

قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾ فعل مضارع يدلُّ على التَّجدُّد مع الزَّمان، وفائدته: بيان تجدُّد التَّقوى واستمرارها، وتأصُّلها في صدور المؤمنين، ما داموا سائرين في هذا الصّراط المستقيم ملتزمين شرع الله تعالى، منتهين عن النَّواهي، مؤتمرين بالأوامر، بعيدين عن سُبُل الضَّلال.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الصِّراط) و(السَّبيل):

الصِّراطُ والسَّبيلُ كلاهما يعنيانِ النَّهجَ المسلوكَ إلى الله

الصِّرَاط هو الطَّريق المُستَسهَل، أصلُه مِنْ: سَرَطْتُ الطَّعَامَ، أي: ابتَلَعتُه، فقيل: (سراطٌ) تصوّرًا أنّه يَبْتَلِعُهُ سالِكُه، أو يبْتلعُ سالِكَهُ[1]، قَالَ الشاعر:

حَشَوْنا أَرْضَهُمْ بِالْخَيْلِ حَتَّى *** تركْناهُمْ أَذَلَّ مِنَ الصِّرَاطِ

والذّلُّ هنا خلافُ الصعوبة، فالصِّراط هو الطَّريق المَهَّدُ المذلَّلُ المسهَّلُ. والصّراط الطَّريق المُستقيم[2]، كما ورد في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾، والصِّراط طريقٌ عُلِّمَتْ لِلسّالِكِ جَميعُ مَعالمه، فالله تعالى قَدْ بَيّنَ دينه ووضّحه، ولا يخفى شيءٌ على من أراد أن يسلُك صراط الله.

وجاء (الصّراط) في القرآن الكريم في أغلب المواضع دالًّا على الطّريق الموصل إلى الله، كقوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: 126]؛ إلّا في قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: 23]. بينما خصّ السَّبيل للدّلالة على طريق أهل الضّلال. إلّا ما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرط).
(2) الرّاغب، المفردات: (صرط).

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]، فقد جاءت للدّلالة على طريق الحقّ، ولكنّ الدّعوة لهذه السبيل كانت مُقيّدةً بكونها على بصيرةٍ، ممّا يجعلها دعوةً إلى صراط الله، لكنّ التّعبير بلفظ السبيل في هذا الموضع فيه تعريضٌ بالسُّبُل الّتي سَلَكَها إخْوَةُ يوسفَ معَ أبيهِمْ وأخيهم في هذه السّورة، وفيها تَعْريضٌ كذلك بكلّ السُّبُل الّتي يَضَعُها أهل الباطل في طريق الأنبياء.

وأمّا السّبيل فمنها طريقٌ سالِك ومنها غير ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النّحل: 9]، فاللهُ يَقْصِدُ السَّبيلَ للمُسلِمين وللدَّابَّةِ، والسبيلُ الجائر مقابلُ السّبيلِ السّابل[1]، وهو السّبيلُ المَسْلوك[2]. فالسّبيل منها الطريق الذي لم يطرُقْهُ طارق، أو أنّ المُخاطَب به لم يَسْبق له أن سَلَكَه، فهو مجهولٌ عنده، وقد يكون معلومًا عند غيره.

ونخلُص بأنّ الصّراط يدلّ على الوضوح والاستقامة، والسَّبيل منها ما هو سالِكٌ، ومنها غيْرُ ذلك، ولهذا فَقَدْ خَصّ الله تعالى طريقَ الإسلام بالصِّراط، ووَصَفَ طُرُق أهل الضّلال بالسُّبُل.

(1) ابن سيده، المحكم (سبل).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (سبل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني عشر، سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 12 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-64-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 12 : سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-64-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1637585 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»